القيمة السياسيّة للعمارة

تأثير الإيديولوجيا السياسيّة في الفكر المعماري والعمراني

د. م. جورج قنصلية[1] و م. رزان سلمان[2]

الملخص

هدف البحث الى القاء الضوء على استخدام الإيديولوجيا السياسية للعمارة لفرض بيئاتٍ معمارية وعمرانية محددة، من خلال الاعتماد على التأثير النفسي للبيئة المعمارية والعمرانية في الأفراد.

وعرض إشكالية سيطرة القيمة السياسية على قيم العمارة الإنسانية (الجماليّة والثقافيّة وحتى الوظيفيّة) وما يوصل ذلك العمارة إلى التحول من امتدادٍ طبيعي لذات الإنسان في العالم الخارجي ولقيمه الفكرية في بيئته إلى أن تصبح أداةً للحدّ من هذا الامتداد، ولتكون عمارة مرحلةٍ ما ترجمةً رمزيّة – مؤثرةً تأثيراً قوياً – للإيديولوجيا السياسية للقوّة الحاكمة في تلك المرحلة.

وذلك من خلال دراسةٍ تحليلية لتأثير الإيديولوجيا السياسية في العمارة في القرن العشرين، العمارة السوفييتية نموذجاً، وفي بداية القرن الواحد والعشرين، عمارة الخليج العربي نموذجاً .

ولتكون نتيجة البحث تحديد سمات الفكر السياسي المعماري، الإيجابية منها والسلبية، وتحديد نطاق التأثير المجدي والأقصى للقيمة السياسية للعمارة، والوصول إلى رؤيةٍ واضحة للقيمة الإنسانية للعمارة.

الكلمات المفتاحية: الإيديولوجيا السياسية، الفكر المعماري السياسي، العمارة السوفييتية، الرأسمالية والعمارة، العمارة الإنسانية.

[1] أستاذ مساعد، كلية الهندسة المعمارية، جامعة تشرين، سورية.

[2] محاضرة، كلية الهندسة المعمارية، جامعة تشرين، سورية.

Political Value of Architecture
The Political Ideology effect on Architectural and Urban thought

Dr. Georges Kounsselie[(1)] and Arch. Razan Selman[(2)]

Abstract

The research aims to shed light on the use of political ideology of architecture to impose specific architectural and urban environment, depending on psychological effect of architectural and urban environment on people.

It, also, displays the problematic of the control of political value on humanitarian values of architecture (aesthetic, cultural and even functional), which enables architecture to the transformation from natural extension of the human-self in the outside world and its intellectual values in his environment to become a tool to reduce this extension .

That will be through an analytical study of political ideology effect on twentieth century architecture, and at the beginning of twenty first century, Soviet Architecture and The Arabian Gulf Architecture as examples.

Search result will conclude the attributes of political architecture thought, both positive and negative ones, and determine the worthwhile and maximum range of political value of architecture, so we can reach to a clear vision of human value of architecture.

Key words: Political ideology, Political architecture thought, Soviet Architecture, Capitalism and Architecture, human architecture.

[(1)]Associat Professor, Faculty of Architecture, Tishreen University, Syria.
[(2)] Lecturer, Faculty of Architecture, Tishreen University, Syria.

مقدمة:

تفرض كلّ إيديولوجيا سياسية تهيمن مدة ما على المجتمع المفاهيم الحاكمة لأفراد هذا المجتمع، التي ترسمها بما يناسب أهدافها ويبرر أساليبها للوصول إلى تلك الأهداف. والعمارة كتجسيدٍ للأفكار والقيم الإنسانية، وكمولّدةٍ للفراغ والمادة والزمن، تصنع البيئة المحيطة التي يعيش فيها الأفراد ويستمدّون معظم تكوينهم النفسي والفكري منها، وتكوّن العالم الواقعي المادي الموازي لنظرياتٍ يُراد لها أن تحدّد اتجاه سير المجتمع. وبذلك يمكن للعمارة أن تُستخدم كأداةً للمنظومات الإيديولوجية السياسية لدمج الأفراد في هويةٍ جماعية محددة، وضمن إطارٍ مناسب لأهدافها.

هدف البحث وأهميته:

هدف البحث إلى:

1- التعريف بمفهوم الفكر المعماري السياسي من خلال مفاهيم كل من الإيديولوجيا السياسيّة والعمارة والعلاقة بينهما.

2- إظهار تأثير الإيديولوجيات السياسية المختلفة في الناتج المعماري، وذلك بعرض أمثلةٍ توضّح اختلافات الأفكار المعمارية لمراحل مختلفة في التّوجه السياسي، (أمثلة عن العمارة السوفيتية وعمارة دول الخليج العربي).

3- التوصل إلى تحديد سمات الفكر المعماري السياسي، وتوضيح إيجابياته وسلبياته.

أهمية البحث تتضّح من إظهار البعد السياسي للعمارة، ومناقشة تأثير هذا البعد في عمارة مرحلة ما وطبعه لعمارة تلك المرحلة بطابعٍ خاص يحمل أفكار الإيديولوجيا السياسية لتلك المرحلة.

منهجية البحث:

اعتمد البحث المنهج التحليلي الاستقرائي من خلال رصد وتحليل لتجارب عالمية للأنظمة المعمارية التي فرضتها إيديولوجيات سياسية، وذلك بعرض أهم السمات والأفكار التّي ميّزت عمارة تلك المرحلة، للوصول إلى تحديد سماتٍ واضحةٍ للفكر المعماري السياسي.

وبتحديد هذه السمات، تتوضح إمكانية الافادة من الإيجابيات ومعالجة السلبيات، لنصل إلى عمارةٍ إنسانية راقية ومتقدّمة.

1-1 – مفهوم الإيديولوجيا السياسية:

تُعرّف الإيديولوجيا بشكلٍ عام بأنّها النسق الفكري لمجموعة من الأفراد الذي يحمل أهداف هذه المجموعة ويرسم بالوقت ذاته الطرائق، ويحدد الوسائل المتبّعة للوصول إلى تلك الأهداف (نسق فكري ديني – أخلاقي – فلسفي – اقتصادي – اجتماعي). والإيديولوجيا صيغةٌ تفرضها السياسة كلّها، فالنظم والقوى السياسية وما يمثلها في المجتمع من أحزاب تتطلب وجود إيديولوجيا ناظمة معلنة للجماهير تعّرف بها عن توجهاتها.

ويذكر أندرو هيود "من المعاني التي ارتبطت بالإيديولوجيا:

- مجموعة من الأفكار السياسية ذات التوجه الحركي.
- أفكار الطبقة الحاكمة.
- أفكار سياسية تجسد أو تبيّن المصالح الاجتماعية أو الطبقية.
- أفكار تسكن الفرد داخل سياق اجتماعي وتولد إحساساً بالانتماء الجماعي.
- مجموعة من الأفكار المصرح بها رسمياً وتستخدم لإضفاء الشرعية على نظامٍ سياسي ما.
- مذهب سياسي شامل يدعي احتكار الحقيقة.
- مجموعة مجردة ومنظمة بدرجة عالية من الأفكار السياسية" [5].

ويختلف مصطلح الإيديولوجيا السياسية عن مصطلح النظام السياسي، فالإيديولوجيا تمثّل مجموعة من الأفكار،

أمّا النظام السياسي في بلدٍ ما فهو آلية الحكم التّي تمتلك سلطة تشريع القوانين وصلاحية تنفيذها، فنظام الحكم في مرحلةٍ ما يقدّم الأداة العملية لتنفيذ أفكار الإيديولوجيا المسيطرة في تلك المرحلة في مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، ويظهر ذلك في مجال العمارة التّي تمثّل موضوع البحث.

1-2- مفهوم العمارة:

تعرّف العمارة بأنّها علم تكوين الفراغات والكتل ذات الوظائف المحددة، من حيث جوانبها الوظيفية والاقتصادية، واعتمادها الوسائل الرياضية والفيزيائية والعلمية التجريبية والتقنية في تكوين المباني. وفنّ تكوين هذه الفراغات والكتل، وذلك في القيمة الرمزية التي تتضمنها، وفي الجانب الإنساني والبعد الجمالي والثقافي الذي تحمله.

ويعرف روبرت ستيرن العمارة بأنّها: "التوصيف المادي للقيم الثقافية. ويجب على المبنى الفيزيائي أن يكون موضوعاً للتواصل الاجتماعي. فالشكل عبارة عن إظهارٍ مادي، والشكل المعماري يتحقق كجزء من انتماء الذات الواعية إلى العالم الخارجي"[2]. بدأت دراسات تأثير المحيط في السلوك الإنساني تظهر في جامعات ومعاهد تعليم العمارة في النصف الأول من القرن العشرين، إذ ظهرت نظريات الإدراك الحسي ونظريات سيكولوجيا العمارة، واعتمدت المبادئ النفسية للتصميم كمعيارٍ لتحديد جودة التصميم الداخلي والخارجي، ودراسة تأثير الشكل الخارجي للكتل المعمارية في الحياة النفسية لأفراد المجتمع.

ويذكر غراي ت.مور "إنّ دراسات تأثير المحيط في السلوك، في العمارة هي منهجٌ أو مقاربةٌ معاصرة للحاجات الإنسانية التقليدية في العمارة. إنّها وجهة نظر تصميمية ومحيطية تضع القيم، الحاجات وأوليات المستخدمين في مقدمة المعالجة التصميمية. وهي فلسفة تصميم هدفها تحقيق الاكتفاء للحاجات الإنسانية وإزالة الضغوط التي يسببها المحيط. أسست على الاعتقاد بأنّ التصميم الجيد والأبنية العظيمة يحكم عليها في النهاية بما تقدّمه للوجود الإنساني من حياة، وما تضيفه من إنسانية، ومن قدرةٍ وحرية" [7].

1-3 – الفكر السياسي في العمارة:

كانت المنظومات السياسية والإيديولوجية ومازالت تستخدم العمارة كأداةٍ لتجسيد برامجها ونقل أفكارها إلى أرض الواقع لتصبح عالماً واقعياً يحيط بالأفراد ويتداخل مع حياتهم، واخفاق تلك الإيديولوجيات يؤدي إلى اخفاق تلك العمارة رغم من بقائها المادي، لتكون عمارةً تفتقد للغايات السياسية التي أنتجتها.

اتخذت الإيديولوجيات السياسية الكبرى في القرن العشرين شكلاً متطوراً عن سابقاتها ذات الصفة الدينية في القرون الوسطى، اذ كانت السلطة دينية أي تستخدم الأفكار الدينية للسيطرة على المجتمع، وتظهر العمارة تلك السيطرة بوضوح، فالكتل المسيطرة على أيّ مدينة كانت المباني الدينية بضخامتها والبذخ المعماري المستخدم فيها، أمّا في القرن العشرين، فأصبحت المباني التجارية تمثل رمز أيّ مدينةٍ حديثة بارتفاعاتها الشاهقة واختراقها لخط السماء لأي مدينة لتكون السيطرة الحالية هي سيطرة الاقتصاد، رأس المال.

ويذكر غوستاف لوبون أنّ من نتائج الثورات السياسية: "بعد أن يتمّ النصر لحزب ينظّم هذا الحزب المجتمع بما تقضيه مصالحه، فيسنّ القوانين، ويضع الأنظمة على حسب منافعه ومنافع الطبقات التي ساعدته على الغلبة".[4] وذلك ما تظهره عمارة كل مرحلةٍ تاريخية.

في ثلاثينيات القرن العشرين، فرض الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي عمارةً خاصة به، مستمدةً من أفكار الحزب ومبادئه، من عيشٍ مشترك ومساواةٍ اجتماعية للجماهير التي تتوحد تحت حكم السلطة. وبانهيار الاتحاد

السوفيتي في العقد الأخير من القرن العشرين، تحرر الفكر المعماري من القواعد المقيدة لحريته، إلاّ أنّ مباني تلك الحقبة مازالت قائمةً ومستخدمةً رغم من عدم كفاءتها في بعض الجوانب، ليصبح من الواضح اخفاق المنظومة التي فرضتها في تحقيق غاياتها الاجتماعية، فالوعود مستمرة بهدم تلك المباني أو استبدالها.

1-4- الرأسمالية والعمارة:

يظهر تأثير الرأسمالية في العمارة في معظم الدول التّي تعتمد الرأسمالية كنظام سياسي اقتصادي. ومنذ سبعينيات القرن الماضي، وبعد أن تم تسويق نموذج السوق الحر كنموذجٍ اقتصادي يحقق فرصاً متكافئة ويحرر المجتمع من القيود الطبقية، أصبح البناء أحد أهمّ المحركات لعجلة الاقتصاد، وتحوّلت المباني إلى سلعٍ للبيع، إذ لا تأتي عملية البناء استجابة للحاجات الإنسانية بل كنتيجة لتجاذبات العرض والطلب في الأسواق العقارية.

أصبحت المباني مرتبطةً كثيراً بالفائدة الاقتصادية التي تعود بها على المستثمر، إذ أصبحت إمكانيات المبنى في تحقيق الربح تضاف إلى جودة التصميم المعماري (الفراغية والجمالية والوظيفية) في تحديد قيمته. وبعد أن كان المبدأ الأساسي لعمارة الحداثة الذي أطلقه المعماري لويس سوليفان "الشكل يتبع الوظيفة"، بدأت مرحلةٌ جديدة، كما يقول المعماري ريتشارد روغرز "الشكل يتبع الربح، ذلك هو المبدأ الجمالي لوقتنا الحالي"[9]. أصبحت القيمة الشرائية للمبنى تتخطى قيمته الوظيفية.

وبالنهضة التكنولوجية في النصف الأخير من القرن الماضي، ودخول التكنولوجيا مختلف المجالات، ظهرت إمكانية فصل الإنتاج المعماري عن محيطه الجغرافي والبيئي، فتلاؤم المبنى مع المحيط البيئي والشروط المناخية لم يعد ضرورياً، فالتكنولوجيا تقدّم مختلف الحلول لمختلف الأنماط المناخية والمواقع الجغرافية. أدّى ذلك إلى تضخّم في كمية الإنتاج المعماري غير المبرّر. أي أنّ استخدام التكنولوجيا تسببّ فضلاً عن تقديمه الحلول لبعض المشكلات التصميمية والتنفيذية، تسبّب بالمزيد من ضياع الهوية المعمارية المحليّة، كما يذكر المعماري سيدريك برايس "التكنولوجيا هي الحل، ولكن ماذا كانت المشكلة "[9]. وباعتبار الإنتاج المعماري مجالاً للربح المادي، تأتي إعادة الإعمار بعد الدمار الضخم الذي تخلّفه الحروب كمجال آخر للربح للشركات غير الخاضعة للدولة وبمعظم الحالات لشركات أجنبية. يظهر ذلك تناقضاً في حالة إعادة الإعمار من قبل الدول التي قامت بنفسها بالتدمير.

ولسيطرة الرأسمالية تأثيراتٌ سلبيّة أخرى، فالرأسمالية تحاول أن تفيد من الأفكارٍ المعمارية الجديدة كالعمارة الخضراء والعمارة المستدامة، لتحقيق الأرباح المادية. وذلك من خلال عملية رفع تكلفة تنفيذ المبنى البيئي لترفع من تكلفة استخدامه، ولترفع من ثمّ من قيمته الاستعمالية (ليس للأشياء قيمة لأن لها تكلفة ولكن لها تكلفة لأنّ لها قيمة)[10]. لتكون العمارة الأداة الأقوى لفرض فكرة الرأسمالية: يتخطى الربح الذي يمكن تحقيقه عن طريق التملك ذلك الذي يمكن تحقيقه عن طريق العمل.

2- 1- العمارة السوفييتية:

في بداية القرن العشرين مرّت روسيا بمرحلة اضطراباتٍ، قامت الثورة الروسية عام 1917 لتنهي الحكم القيصري وتقوم حكومةٌ مؤقتة، أزالها البلاشفة وأقاموا حكومةً اشتراكية، تلا ذلك الحرب الأهلية الروسية التي انتهت، بعد أن دمرت الاقتصاد الروسي، عام 1921، وفي عام 1922 أعلن عن قيام الاتحاد السوفييتي.

2- 1- 1- المرحلة الأولى 1917 -1931:

بعد أن دمرت الحرب الأهلية البنية التحتية في روسيا، لم يكن هناك هيئاتٌ تنفذ مشاريع بنائيةً جديدة، رغم ذلك ظهرت اتجاهاتٌ معماريةٌ متنوعةٌ جديدة في روسيا، من

العقلانيين إلى الحركة البنائية التي ضمت اتجاهاتٍ معماريةً فنيةً متعددة.

الاتجاه العقلاني:

بدأت مدرسة Vkhtemas الروسية الفنية جناحها المعماري عام 1922، وكان من أشهر معماريها المعماري نيكولاي لادوفيسكي، الذي عُرِف بخطوطه المجددة (الشكل1)، وكانت تعدّ من المدارس الريادية في روسيا، واتبعت طرائق تدريسٍ وظيفيةً وفنيّة، اعتمدت فيها على النظريات الجديدة في علم النفس، وقدّمت تجارب جديدةً في التكوينات مثل مطعم Simbirche الزجاجي المعلّق (الشكل 2).

أهم أفكار الاتجاه العقلاني:

1. تقريب المنهج المعماري إلى علم الاقتصاد السياسي، وربطه بمبادئ الثورة الماركسية.
2. البحث في العلاقة بين الأشكال الهندسية الصناعية الجديدة وقوانين عمليات الإدراك الحسي.

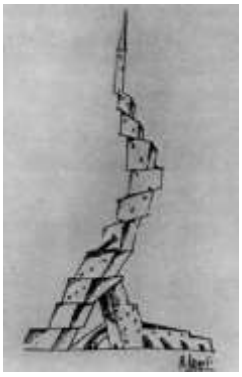

الشكل (1) تصميم نيكولاي لادوفيسكي عام 1922[11].

الشكل (2) مطعم Simbirchev الزجاجي المعلّق، روسيا [16] .

- **الحركة البنائية (Constructivist Architecture)**

من أهم روادها الكسندر فزنين، الذي اعتمد وأنصاره المنهج الوظيفي، وحاول معماريو هذه الحركة تقديم حلولٍ اجتماعية في العمارة السكنية، تتناسب والتغييرات الجذرية في بنية المجتمع الروسي بعد تغيير نظام الحكم القيصري إلى النظام الشيوعي.

من أشهر مشاريع الحركة البنائية مشروع برج تاتلين في بطرسبرغ عام 1919 للمعماري المستقبلي فلاديمير تاتلين (الشكل 3)، الذي عرض إمكانيات مواد البناء الحديثة كالفولاذ والزجاج، رغم عدم تنفيذه إلاّ أنّه علامة من علامات الحركة البنائية، وصمّم ليكون رمزاً تذكاريّاً للشيوعية العالمية، ويظهر على طابعٍ روسي عام 2000 مجاوراً للعامل الذي يرمز للشيوعية (الشكل 4).

الشكل (3) تصميم برج تاتلين-1919 [13].

الشكل (4) طابع روسي صدر عام 2000 [11].

أهم أفكار الحركة البنائية:

1-اعتمد المنهج العقلاني، كتكرار العناصر المعمارية وتنميطها، واستخدام الوحدات القياسية، والتصميم الاقتصادي والافادة القصوى من منجزات العلم في مجال الصناعة والتكنولوجيا.

2- استخدام الحجوم المنتظمة، وتقسيم المبنى بنوافذ كبيرة، والواجهات المزججة بالكامل التي تتوافق مع الهيكل الإنشائي.

3- معالجة المنظومة الحجمية الفضائية للمبنى بإضفاء الشفافية، التي تكسب الجدران الخفّة، وتدمج الفضاء الداخلي مع الخارج.

- **رابطة المعماريين الجدد:**

تأسست أيضاً "رابطة المعماريين الجدد" عام 1922 ذات الاتجاه المنطقي العقلاني والتجارب الوظيفية، التي أغنت العمارة الروسية في تلك المرحلة بتنوعٍ في الحلول والأشكال والحجوم المختلفة، وتميزت عن اتجاه العمارة البنائية، إلاّ أنّ الاتجاهين يعبران عن العمارة الحديثة في بداية القرن العشرين، والتحرر من القيود التصميمية والفكرية السابقة. "وتعدّ محاولة المعمار إيليا غولوسوف في مشروعه المنفذ (نادي زويف) في موسكو1926، إحدى المحاولات الجريئة في هذا السبيل، إذ جاءت تشكيلات فراغات المبنى بحجوم مكعبة وأخرى أسطوانية مع استخدام كثيف للزجاج في سطوح الجدران كما أكسب المعمار مسقط مبناه الأفقي قابلية التغيير وإمكانية التحويل"[11]. (الشكل5).

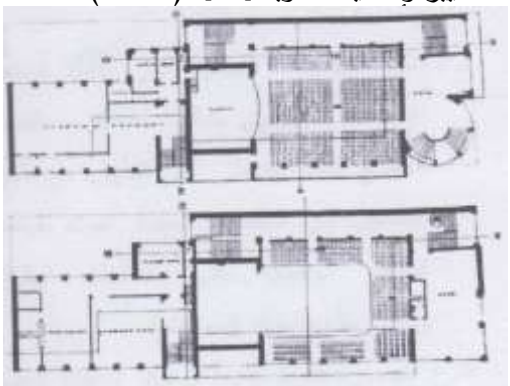

الشكل (5) مبنى نادي زويف، موسكو، روسيا 1926 [17].

تميّزت البنائية عن الاتجاه العقلاني في الناتج المعماري، كما ظهرت في البنائية اتجاهاتٌ مختلفة، إلّا أنّ مجمل هذه الاتجاهات كانت أساس العمارة الحديثة المستندة إلى التقدم التكنولوجي ومواد البناء الحديثة، التي تأثرت بها العمارة الغربية تأثيراً كبيراً. استمدت هذه الاتجاهات المعمارية أفكارها بشكلٍ أساسي من الفن، من كلٍّ من الحركة التكعيبية والمستقبلية، وانتشرت في روسيا وأوروبا انتشاراً واسعاً في عشرينيات القرن الماضي، كما استمدت من أفكار المعماري الفرنسي لوكوربوزييه، الذي كلّف بعددٍ من المشاريع في الاتحاد السوفييتي منها مقر الجمعيات التعاونية (سنتروسويوز) (الشكل 6).

الشكل (6) مبنى سنتروسويوز، موسكو، [11].

- **التخطيط العمراني في المرحلة الأولى:**

مع النهضة الصناعية والعمرانية في نهاية القرن التاسع عشر، كانت المدن في الاتحاد السوفييتي تعاني من المزيد من الازدحام وسوء المرافق الصحية والفروق الطبقية في مناطق السكن، ومع الثورة الروسية عام 1917 وتأثير الفكر الماركسي، اتجه الفكر التخطيطي إلى العمل على إلغاء الفروق الطبقية بين الريف والمدينة، وظهرت آفاقٌ جديدة للتخطيط بتأميم جميع الأراضي الزراعية ونقل الملكية إلى الدولة، إلاّ أنّ ضعف الاقتصاد والحرب العالمية الأولى والحرب الأهلية، ذلك كلّه منع تنفيذ الخطط العمرانية الجديدة، لكن المعماريين كانوا يضعون النظريات ويقدّمون الاقتراحات لمدنٍ جديدة، اذ ظهرت نظريتان للتخطيط العمراني [12].

- **النظرية المدينية:**

أهم أفكارها:

1- معارضة توسع المدن الحالية والاعتماد على اللامركزية والنظام المستقل.

2-الاعتماد على النقل المشترك (الباصات)، وتوفير إمكانية المشي للوصول إلى مكان العمل، مع عدم وجود مركز تجاري.

3- الاعتماد على السكن الشعبي المشترك، وإلغاء المفهوم التقليدي للعائلة للوصول إلى أسلوب تعايش مشترك بشكل كامل.

قدّمت اقتراحات للسكن الشعبي المشترك في مسابقات التصميم في موسكو ولينينغراد بين الأعوام 1925 – 1930 لكنّها لم تُنّفذ.

- **النظرية اللامدينية:**

وضعها المعماري ميكايل اوخيتوفيتش وانضم إليه لاحقاً المعماري مويسي غينسبرغ، وأفكارها تعاكس أفكار النظرية المدينية:

1-إلغاء تام للمفهوم التقليدي للمدينة لتحقيق الهدف الماركسي بإلغاء الفرق بين الريف والمدينة.

2-نشر التجمعات السكنية على أراضي الاتحاد السوفيتي كلّها بشكل مساكن منفصلة تتوضع بشكل شريطي على الطرق، مع تأمين الوصول إلى الخدمات العامة، حيث تتوضع المراكز الوظيفية على تقاطعات الطرق، وبنظام نقلٍ مشترك (باصات).

اقترح غينسبرغ تفريغ مدينة موسكو وإعادة توضّع للمجموعات السكنية على شكل سكنٍ مشترك في مساحات طولية ترتبط مع الخدمات بطرق يتم التنقّل عبرها بالباصات. لم تنفّذ الاقتراحات النظرية، ورفضت أغلبية الطبقة العاملة فكرة السكن المشترك، ورفض ستالين كسياسي واقعي هذه الاقتراحات بوصفها مثالية (يوتوبيّة) وتشكّل خطراً على الاقتصاد، ومنعت أفكار الاتجاهين.

2- 1- 2- المرحلة الثانية 1931 -1999:

- **العمارة الواقعية الاجتماعية**

في ثلاثينيات القرن العشرين بدأ الحزب الشيوعي يفرض اتجاهاً معمارياً يعيد إحياء العمارة الكلاسيكية الصرحية، والابتعاد عن اتجاهات العمارة الحديثة الإبداعية الفنية، "وقد ظهرت بوادر هذا التغيير بوضوحٍ في مسابقة تصميم قصر السوفييت في موسكو عام 1931-1933. ففي الجولة الأخيرة من التصفيات التي استغرقت في مجملها أربع جولات، لم يكن هناك سوى مشروعٍ واحد ذي منحىً حداثي من بين المشروعات الخمسة المتأهلة للتحكيم النهائي، أمّا الأربعة الباقية فكانت بطرازٍ إحيائي تقليدي. وكان هذا المشروع من تصميم ألكسندر فزنين. ولم يفز هذا المشروع بالجائزة الأولى التي فاز بها تصميمٌ رومانسي صرحي قدمه المعمار بوريس يوفان." [11] (الشكل7) ورفضت باقي الاقتراحات المقّدمة.

الشكل (7) قصر السوفييت، التصميم الفائز بالمسابقة، بوريس يوفان [8].

بدأت مرحلة جديدة من العمارة السوفيتية بعد إعلان نتيجة هذه المسابقة، لتصبح "العمارة الواقعية الاجتماعية"، وفي عام 1932 صدر قرارٌ بحلّ جميع التنظيمات الأدبية والفنية ويحلّ محلها اتحادٌ واحد فقط لكل نوعٍ من أنواع الفن والأدب، وتتبع الاتحادات كلّها إلى اللجنة المركزية في الحزب الحاكم. لتنتهي المرحلة التجريبية للعمارة الروسية، وتبدأ العمارة التي تبنتها الحكومة السوفيتية.

تبنّت حكومة الاتحاد السوفيتي النمط الكلاسيكي في العمارة، وبني عددٍ من الأبنية ذات الطابع الصرحي في موسكو بقرار من جوزيف ستالين، إذ رأى أن موسكو تفتقد لمبان عالية الارتفاع تسيطر بكتلتها الضخمة على محيطها وترمز في الوقت ذاته لانتصار الشيوعية، بنيت سبع مبانٍ صرحيةٍ مرتفعة، تُعرف ب"الأخوات السبع"، (الشكل 8)، وهي سبع ناطحات سحاب كان من المفترض أن يكون "قصر السوفييت" مضافاً إليها إلّا أنّ بناءه توقف عند وفاة ستالين، وهي:

1. جامعة موسكو الحكومية (1949–1951) 35 طابقاً، 240م (الشكل 9).
2. مبنى جسر كوتلينتش سكايا (بلوك سكني) (1938–1040) (1948–1950) 26 طابق، 176م (الشكل 10).
3. أوتيل أوكرانيا (1953–1957) 34 طابقاً، 206م.
4. مبنى وزارة الخارجية (1948–1953) 27 طابقاً، 172م (الشكل 11).
5. مبنى ساحة كوردين سكايا (بلوك سكني) (1948–1954) 24 طابقاً، 156م.
6. وزارة النقل (1943–1953) 24طابق، 138م.
7. أوتيل لينينغراد سكايا (1949–1954) 17 طابقاً، 136م.

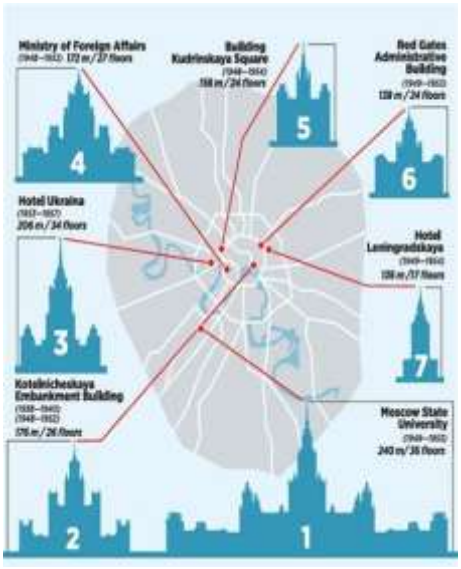

الشكل (8) مواقع "الأخوات السبع" في موسكو[19] .

الشكل (9) جامعة موسكو الحكومية [14] .

الشكل (10) مبنى جسر كوتلينتش سكايا [14] .

الشكل (11) مبنى وزارة الخارجية، موسكو [14] .

الشكل (12) قصر الثقافة، وارسو(بولونيا) [15].

بعد ذلك عمّم هذا النموذج في عددٍ من بلدان ذات الحكم الشيوعي، كرمز لمركزيّة الفكر الشيوعي في موسكو، مثل قصر الثقافة في وارسو (بولونيا) (الشكل 12) الذي قدّم من قبل حكومة الاتحاد السوفييتي للشعب البولوني كهديةٍ من الشعب الروسي، وحدثت مطالباتٌ بهدمه عند انهيار الاتحاد السوفيتي كدليلٍ على تحرّر بولونيا من سلطة الشيوعية.

- **التخطيط العمراني في المرحلة الثانية:**

تم التركيز على العمارة السكنية في الحقبة السوفيتية، اذ كانت تجسيداً للأفكار الشيوعية، وأداةً فعالة في فرض مظاهر المساواة والعيش المشترك، وبعد الحرب العالمية الثانية عانت العديد من بلدان أوروبا الشرقية من دمار مدنها وضعف اقتصادها، فكانت الأولوية لإعادة بناء مساكن بأعدادٍ كبيرة خلال مدة زمنية قصيرة.

وُضعت قواعد راسخةٌ للعمارة السكنية، واستمدّت أنماط المباني أسماءها من أسماء الحكّام، كإشارة الى تجسيد العمارة للأفكار الاجتماعية لقادة الكرملين فكان البناء ستالينكي وخروشيوفكي وبريجينفكي. ورغم من محاربة البذخ المعماري الظاهر للوصول إلى عمارةٍ سكنية متساوية في المظهر الخارجي، إلاّ أنّ التوجه الجديد إلى البناء الصناعي واسع النطاق، إذ تصنّع الأجزاء المكونة بشكلٍ كامل في مصانع خاصة، ثم تجمّع في مواقع البناء دون أي اعتبار للوسط المعماري والطبيعي المحيط بها، وإهمال العمارة المحلية في محاولةٍ لإلغاء الفروق بين مكونات المجتمع المختلفة التي تعددت تعدّداً كبيراً في الاتحاد السوفيتي نتيجة لامتداده الجغرافي الواسع، هذا التوجّه أنتج مباني متشابهة حولت المدن إلى كتل متشابهة بدورها ودون هوية تميزها (الشكل 13).

الشكل (13) بلوكات سكنية متشابهة، موسكو1980 [12].

حددت الخطط العمرانية ارتفاعات المباني وأنماطها وكثافتها وبذلك حددت سمات المدينة وخط السماء الخاص بها (الشكل 14)، ونفّذت هذه الخطط في بلدان الاتحاد السوفيتي، فأنتجت مدناً متشابهة في بلدانٍ مختلفة (الشكل15).

ونتيجة العمل على إلغاء الفروق بين المدن والريف لتحقيق المساواة والعيش المشترك، تمّ تركيز الاهتمام على الضواحي والمناطق المحيطة بالمدن القديمة وإهمال مراكز المدن، فظهرت فروقٌ واضحة بين مركز المدينة وضواحيها من حيث تطور الخدمات والبنية التحتية.

الشكل (14) خط السماء في بلغراد، صربيا [20].

الشكل (15) بلغراد، صربيا [20].

الاختلافات بين المرحلتين:

1- تتميز المرحلة الأولى بالخروج عن المألوف وعن الأفكار التقليدية السابقة، تزامناً مع ظهور الفروع الحديثة من العلوم، فاتّسعت حدود الإبداع، وكان التأثر بالحركات الفنيّة الثورية في تلك المرحلة.

2- اتساع مساحة الأفكار والمرونة في تقبل الاتجاهات الفنية الأخرى.

3- تشابه المباني في المرحلة الثانية على مساحات واسعة من الدول التي كانت ضمن الاتحاد السوفييتي، وانتشار قالب نمطي للأبنية جميعها.

4- عدم تقبل الأفكار المغايرة والالتزام الصارم بقواعد محددة.

غابت القواعد المعمارية والغايات الاجتماعية مع غياب السلطة التي حددتها، ولكن بقيت المباني السكنية على حالها، مع وعود بهدمها واستبدالها. وبعد عقود من التمسك بعمارة الواقعية الاجتماعية، ومع بداية القرن الواحد والعشرين، اكتسبت موسكو وجهاً معمارياً حديثاً مشابهاً للعمارة العالمية، وذلك في مشروع مركز موسكو الدولي للأعمال (الشكل 16)، لتظهر لموسكو ملامح المدن العالمية الكبرى، بدلالةٍ واضحة على قوة الاقتصاد وبصورة حديثة لمركز ثقلٍ سياسي واقتصادي عالمي.

الشكل (16) مركز موسكو الدولي للأعمال المصدر [21].

2- 1- عمارة مدن الخليج العربي:

في منتصف القرن العشرين، ظهرت إمكانيات لرؤوس أموال ضخمة في منطقة الخليج العربي، ممّا قدّم للإيديولوجيا الرأسمالية إمكانية للسيطرة في تلك المنطقة. ولأنّ الأنظمة الاقتصادية في منطقة الخليج العربي لم تمرّ بمراحل التطور من تصنيع وتحديث وإنتاج لتصل إلى الاستقلال الاقتصادي، فإنّ مجتمعات هذه المنطقة تحوّلت إلى مجتمعات استهلاكية في معظم المجالات. كانت مدن الخليج بشكلٍ عام ضعيفة التأثر بطرز العمارة العالمية، وبقيت بعيدةً عن التيارات الفكرية والحركات المعمارية التي ظهرت، ومن ثمّ لم تواكب تطورها ولم تمر بالمراحل المتعاقبة التي أنتجت النمط المعماري العالمي الحالي. في ثمانينيات القرن الماضي، بدأت حركةٌ معمارية وعمرانية واسعة في مدن الخليج، ظهرت فيها مبالغةٌ معمارية من حيث التصاميم المعمارية وكمية البناء وسرعة تنفيذه (الأشكال 17 و18). كان ذلك نتيجةً مباشرة لارتفاع أسعار البترول ليصبح الخليج من أهم مناطق الاستثمار في العالم.

الاستهتار بالتكلفة، وغياب هدفٍ معماري وعمراني اجتماعي لهذه الحركة، يظهر بوضوح سيطرة الرأسمالية على هذه العمارة، فأصبح لدبي طرازٌ معماري أسماه

المـؤرخ المعمـاري جوزيـف ريكفيـرت "طـراز الإمـارات"، ووصفه "بالطراز التسويقي والسوقي والمنفلش، الذي يمثل هذه الحقبـة من التطـور المعمـاري فـي خدمـة رأس المـال الشره والكاسح الذي لم يقف عند حدودٍ جغرافية أو سياسية أو ثقافية"[1] .

الشكل (17) دبي 2005 [22].

الشكل (18) مشروع لؤلؤة قطر [23].

مـن خـلال هـذا النـاتج المعمـاري فـي منطقـة الخلـيج العربـي، تبدو صـورة العمارة التـي تسيطر عليها الرأسمالية واضـحـة كعمـارةٍ عالميـة لا هويـة قوميـة لهـا، ولا تحمـل خصـائص مجتمـع مـا، وليس لهـا من ينتمـي إليهـا، ولتكون عمارة إيديولوجيا سياسية اقتصادية عالمية. لتصبح العمارة سلعة ذات أرباح في مجتمعٍ قائمٍ على الاستهلاك.

2-2 سمات عمارة الخليج العربي:

الإيجابيات:

1- عمارة قوية الإيحاء، ظهرت في مكانٍ مفتوح للإبداع، ولتقديم الأفكار المعمارية الاستثنائية، مع إمكانية تنفيذٍ قوية مصاحبة لرؤوس الأموال الضخمة الموجودة.

2-عدم وجود قوانين ضابطة تؤطر الإنتاج المعماري، ممّا قدّم مساحةً مميزة من الحرية لإمكانية الوصول إلى أبعد الحدود، ونقل أكثر الأفكار المعمارية تطرفاً إلى أرض الواقع.

السلبيات:

1- عمـارة منقطعـة عـن التـاريخ، لا تـأتي نتيجـةً لتـراكم المعرفـة المعماريـة، بـل نتيجـة تغيّـر الإيـديولوجيا السياسية المسيطرة.

2- اعتمدت العمارة الرأسمالية على الفراغ الاستهلاكي، الـذي يتميـز بأنّـه فـراغ غيـر مخصـص وغيـر فعّـال وظيفيـاً، ويعتمـد علـى تقـديم الرخـاء والرفاهيـة. وبـذلك يحوّل الفراغ المعماري إلى سلعةٍ دون أي قيمة منتجة، وذلـك مـن خـلال المبالغـة فـي الاهتمـام فـي مجـالات السكن الفاخر والتسوّق والسياحة والترفيه.

3- 1- النتائج

سمات الفكر المعماري السياسي

الإيجابيات:

1- فكرٌ منظم محدد الأهداف من قبل الإيديولوجيا التي تفرضـه، لـه برنـامج مكـاني وزمـاني واضـح ينسـجم مـع أهدافه.

2-يتميّز بإمكانية قويّة للتنفيذ على أرض الواقع، بسبب الدعم الاقتصادي المقدّم له من قبل ممثّلي الإيديولوجيا السياسية الّتي قدّمته.

3-يطال شريحة واسعة من المجتمع، بسبب إمكانية تنفيذه على مساحات كبيرة، ومن ثمّ يزداد تأثير أفكاره في الأفراد باعتبار العمارة تشكّل الوسط المحيط بهم والمتداخل مع حياتهم.

هذه الإيجابيات تمنح الفكر المعماري السياسي قدرةً كبيرة على التأثير وترسيخ الأفكار والمبادئ التي يحملها في مرحلة ما.

السلبيات:

1-فكر إقصائي يمنع الإبداع خارج حدوده، ويضع إطاراً أو قالباً للأفكار للوصول إلى النتائج المناسبة له، ويعدّ من يخرج عنه معارضاً للأهداف الاجتماعية التي يعلن أنّه يسعى لتحقيقها.

2-يشكّل الناتج المعماري عنه عبئاً على المدن التي احتوته بعد غياب الإيديولوجيا التي فرضته، وفي حالاتٍ عدّة كانت الرموز المعمارية لمرحلة سياسية معينة تتحول إلى إشكالية تراوح بين المطالبة بإزالتها كلّياً، أو بتحويرها بما يناسب المرحلة الجديدة.

3-قوة الفكر المعماري السياسي تجعل من تحقيق توجهاته أولوية على بقية جوانب العمارة، فسيطرته تهمّش قيم العمارة الإنسانية الثقافية والاجتماعية والبيئية .

ولأنّ العمارة كما يذكر غراي ت.مور "العمارة فنٌّ، يعلو الفنون الأخرى جميعها، بتوليفه بين الخبرة، التقنية، واكتفاء الحاجات الإنسانية. غاية العمارة خلق المكان الذي يُشعِرُ الأفراد بالمزيد من الإنسانية، المزيد من الحياة، المزيد من الراحة والاكتفاء" [7]. فإن سيطرة القيمة السياسية للعمارة على بقية القيم، يبعدها عن التواصل الإنساني ويرسم حدوداً للحياة الاجتماعية بدلاً من منحها الحرية للنمو الطبيعي والصحي، بفرضه قوالب وأنماطاً محددة الأهداف.

3-2-الخلاصة

الاستنتاجات:

1- قيمة العمارة تنبع من الإنسان المكوّن لها، وتكون مقيّدة بالمفاهيم الحاكمة لهذا الإنسان، والإيديولوجيا السياسية تقدّم جزءاً كبيراً من المفاهيم الحاكمة في المجتمع، ويطال تأثيرها المجالات جميعها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بما فيها مجال العمارة.

2- يأتي الناتج المعماري محكوماً بالنتائج المتغيّرة والتحولات المختلفة في التاريخ. هذه النتائج والتحوّلات تأتي نتيجة التغيّر بالمنظومات الفكريّة الّتي تسود المجتمعات عبر المراحل المختلفة.

3- تحمل الثورات الفكرية الرفض لعمارة المرحلة السابقة التي ترفضها الثورة، باعتبار العمارة تجسيداً لأفكار تلك المرحلة. ويأتي مع ذلك الرفض محاولة لتقديم عمارة جديدة تتناسب مع إيديولوجيا المرحلة الجديدة.

التوصيات:

1- تحرير الفكر المعماري من القيود والقواعد التي تفرضها إيديولوجيا سياسية ما، وذلك بالتركيز على تحقيق أهدافها الإنسانية (الوظيفية والجمالية والثقافية) للوصول إلى عمارة تحقق غاياتها الإنسانية من اكتفاء وراحة وأمان.

2- دراسة عمارة المراحل التاريخية المختلفة وتحليلها للوصول إلى فهمٍ واستيعابٍ أعمق لأحداث تلك المراحل وتأثير كلّ منها في المجتمع، ومن خلال نتائج هذه الدراسات يمكن تحديد الجوانب التي يجب التركيز عليها في بناء الفكر المعماري. فالعمارة تظهر عبر التاريخ كترجمةٍ لحالة الجماهير في مرحلة ما، ومن ثمّ يأتي الفكر المعماري في مقدّمة مكوّنات هيكل المجتمع.

3- دراسة العلاقة التبادلية التي تربط بين الإنسان الذي يشكّل العمارة، وبالعكس المحيط المعماري والعمراني الذي يؤثّر في حياة الإنسان النفسية والاجتماعية، فالطريق الذي يوصل الأفراد الى الوعي بأنفسهم، هو ذاته الذي يوصل إلى عمارة إنسانية، مستمدّةٍ من وعي الأفراد لأنفسهم وعلاقتهم ببعضهم بعضاً.

المراجع REFERENCSES

1. الرباط، أ. د. ناصر، *في مدن الخليج طفرة، مراجعات نقدية*، مجلة لونارد، العدد الثاني، السنة الأولى–مارس 2011، المملكة المتحدة.
2. العبيدي، ضرغام مزهر كريم. *دراسة وصفية تحليلية لتأثير الايديولوجية السياسية على منجز العمارة، مدينة برلين إنموذجاً*. مجلة الهندسة، المجلد18، العدد11، تشرين الثاني 2012، صـ161–162.
3. عزب، د. خالد. *الحجر والصولجان، السياسة والعمارة الإسلامية*، الطبعة الأولى. 2012، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، جمهورية مصر.
4. لوبون، غوستاف. *روح الثورات والثورة الفرنسية*، كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، جمهورية مصر العربية، صـ29.
5. هيود، أندرو. *مدخل إلى الأيديولوجيات السياسية*. الطبعة الأولى 2012، المركز القومي للترجمة، القاهرة، صـ14 –15.
6. De Graaf, Reinier. *Architecture is now a tool of capital, complicit in a purpose antithetical to its social mission,* The Architectural Review 24 April, 2015.
7. Gray, T.Moore. *Architecture and Human Behavior :The place of Environment- Behavior Studies in Architecture,* Wisconsin architect, September, 1979, P21.
8. Kusno, Abidin. *Behind the Postcolonial, Architecture, urban space and political cultures in Indonesia,* first published 2000, Routledge, 11 New Fetter Lane, London.
9. http://www.azquotes.com/author/12549-Richard_Rogers 2016
http://www.azquotes.com/author/54827-Cedric_Price 2016
10. https://www.arab-ency.com/_/details.php?full=1&nid=8685.2016
11. https://ar.wikipedia.org/wiki/ عمارة_بنائية 2016
12. https://en.wikipedia.org/wiki/Urban_planning_in_communist_countries
13. https://en.wikipedia.org/wiki/Tatlin's_Tower 2016
14. https://en.wikipedia.org/wiki/Seven_Sisters_Moscow 2016
15. https://en.wikipedia.org/wiki/Palace_of_Culture_and_Science 2016
16. https://issuu.com/saulpublications/docs/2013_volume1/288 2016
17. http://moscudelarevolucion.blogspot.ro/2013/12/club-obrero-zuev.html
18. http://archinect.com/features/article/62725/delirious-moscow 2016
19. http://tipter.com/trips/moscow-old-arbat-stary-arbat-worth-stopping-in-for-a-stroll-on-a-nice-evening 2016
20. http://bikepacker.kancherla.com/
21. http://moscow.touristgems.com/attractions/11566-moscow-international-business-center 2016
22. http://www.boredpanda.com/how-famous-city-changed-timelapse-evolution-before-after/ 2017
23. http://www.callisonrtkl.com/projects/the-pearl-qatar-united-development-company/ 2016.

Received	2016/10/13	إيداع البحث
Accepted for Publ.	2017/06/20	قبول البحث للنشر